

الباب الأول

حالة المرأة في عهود ما قبل الإسلام

المرأة المسلمة - الجزء الأول

الفصل الأول

حالة المرأة فى البلاد ذات الحضارات القديمة

تمهيد :

قبل أن نعرض للوسائل العديدة لتكريم الإسلام للمرأة ومنحها حقوقها الكاملة فى كافة مجالات الحياة ، فإنه من الأمانة أن نعرض بعض الحقائق الهامة التى يجب على المرأة المسلمة أن تقف عليها حتى تعرف كيف كرمها الإسلام ، وأعلى شأنها ، وأعاد إليها كرامتها وسيادتها ، بعد أن كانت على مر العصور - قبل الإسلام - مهينة ذليلة ، لا وجود لها ولا كيان .

أولاً : حالة المرأة عند اليونان (بلاد الإغريق القديمة) :

أرقى الأمم القديمة حضارة ، وأزهرها تمدناً فى التاريخ هم أهل اليونان ، وكان من فلاسفتهم أرسطو ، وأفلاطون ، وديموستين ، ومع ذلك كانت نظرهم للمرأة سيئة للغاية ، فكانت المرأة تُعد من المخلوقات المنحطة التى لا تنفع إلا لدوام النسل ، وتدبير المنزل ، فإذا وضعت المرأة ولدًا دميماً قضوا عليها .

وكانت تؤخذ المرأة الولود من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر .

ولم ينل - فى خلال ازدهار الحضارة اليونانية - الخطوة من نساء الإغريق سوى بنات الحب والهوى .

نظرة فلاسفة اليونان إلى المرأة :

أرسطو:

كانت نظرة أرسطو إلى المرأة لا تعدو نظرته إلى العبيد ، فالمرأة فى اعتقاده كائن

وهكذا فلم تكن للمرأة في المجتمع اليوناني أية منزلة أو مقام كريم .
وكانت الأساطير اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تسمى «باندورا» ينبوعاً لجميع آلام
الإنسان ومصائبه .

وتغلبت الشهوات الجنسية على اليونانيين ، وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى
حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنى وارتكاب الفحشاء
غضاضة يُلام عليها المرء ويُعاب .

وبلغ من الانحطاط المعنوي والخلقي لهم أن صوروا إلهاً لهم يزنى ، ويسرق ،
ويشرب الخمر . واتخذوا من «أفروديت» إلهة لهم يُقدم لها جميع آداب العبودية والذل
والخنوع .

إن «أفروديت» في أساطيرهم كانت زوجة لإله ، ومع ذلك عاشرت ثلاثة آلهة
آخرين ، ثم عاشرت رجلاً من عامة الشعب علاوة على تلك الآلهة ، فكان نتيجة ذلك
أن ولدت من بطنها «كيوبيد» إله الحب .

وانتشرت عبادة «أفروديت» في اليونان وأصبحت أماكن الفجور مراكز للعبادة ،
وأصبحت المومسات خدماً للمعابد ، وألبسوا الزنى كساءً من العمل الديني المبرور .

وبعد ، ذلك وضع المرأة عند الإغريق ، وما وصلت إليه من ذلة ومهانة وازدراء ، ولم
تمض إلا حقبة وجيزة من الزمن حتى انهارت تلك الحضارة .

ولم يكن لليونانيين نصيب من المجد والرقى بعد ذلك مرة أخرى^(١) .

ثانياً : حالة المرأة عند الرومان :

الذين تسنموا ذروة المجد والرقى في العالم بعد اليونانيين هم الرومان (٣١١ ق.م)
حيث اقتبس الرومان الحضارة الإغريقية ، ولم تحظ المرأة عندهم بأى شىء من
التكريم ، ففي التشريع الروماني كانت المرأة تُعد متاعاً مملوكاً للرجل ، وسلعة من

(١) انظر : حضارة اليونان لول ديورانت - ترجمة د. محمد بدران .

وانظر الحجاب لأبى الأعلى المودودي .

ناقص ، ضعيف الإرادة ، وليس في وسعها الرقى إلى مراتب الاستقلال ، فالحياة المنزلية حياتها المثالية ، ومن الخطأ رفعها إلى قَدَر الرجال .

أفلاطون :

وقال أفلاطون في كتابه الجمهورية :

« شجاعة الرجل في الإمرة ، وشجاعة المرأة في تأدية الأعمال الوضيعة صمت متواضع ، وهذا هو شرف المرأة » .

ومن أقوال أفلاطون أيضاً : « ينبغي تداول النساء كما تتداول الحاجات » ، فهو في مدينته الفاضلة يرى شيوخ المرأة بين الرجال !

سقراط :

أما سقراط فيذهب إلى أن للصديق الوفي أن يبر أصدقاءه فيعيرهم زوجته !

ديموستين :

أما ديموستين خطيب اليونان وفيلسوفها المشهور قديماً فيقول في بعض حكمه : «إننا نتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ، ونتخذ العاهرات للذة » .

فكانت الزوجة تنتقل من بيت أهلها لبيت زوجها لا لتكون سيدة بيت ، بل لتؤدي فيه - إلى جانب الخدم - وظيفتها في ولادة الأطفال وحضانتهم .

وكان الفلاسفة يتجادلون في أمر المرأة :

- هل للمرأة روح أو ليس لها روح ؟

- وإذا كان لها روح فهل هي روح إنسانية أو حيوانية ؟

- وعلى فرض أنها ذات روح إنسانية فهل وضعها الاجتماعي والإنساني بالنسبة

للرجل هو وضع الرقيق أو هو شيء أرفع قليلاً من الرقيق ؟

السلع الرخيصة يتصرف فيها كيف يشاء ، ويملك من أمرها ما يريد ، حتى حياتها كانت مملوكة لأبيها ، ثم لزوجها ، ثم لبنيتها ، وكان ملكهم إياها تاماً ، كملكهم للرقيق والحيوان والجماد . وكان يُنظرُ إلى المرأة على أنها مثار الشهوة ، وأنها شيطانة ، وأنها رجس ، وأنها لا سلطان لها على أنوثتها . وحسبنا فيما وصلت إليه المرأة الرومانية من الإهانة والازدراء ما ورد باجتماع مجمع روما للبحث في شئون المرأة ، الذي قرر :

« أن المرأة كائن لا نفس له ، وأنها لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس ، ويجب ألا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وألا تتكلم ، وعليها أن تمضى جميع أوقاتها في الخدمة والخضوع » .

واعتبر القانون الرومانى « الأنوثة » سبباً من أسباب انعدام الأهلية والحجر ، فلقد كان للحجر في القانون الرومانى ثلاثة أسباب : « الصغر ، والجنون ، والأنوثة » .

وبلغ من احتقارهم للمرأة أن منعوها من الكلام ، فكانت المرأة - من أدنى الأسر إلى أرقاها - تسير في الطريق ، وتعمل في بيتها ، ولا تنبس بكلمة ، وإذا تكلمت فيأ ويلها ؛ لأن كلامها أداة للإغراء ، وكأن الله حرّمها أن تنطق بخير أو تدل عليه .

ومن هذا القبيل أن تقدم أعضاء مجلس « التربيون » الرومانى بقانون يحرم على المرأة حق التملك لأكثر من نصف أوقية من الذهب ، وأن تلبس ثياباً مختلفة الألوان ، وأن تركب عربات إلى مدى ميل من روما إلا في بعض الحفلات العامة .

ولما تقدم الرومان خطوات في سبيل المدنية والحضارة خفت قسوة سلطة الرجل على المرأة ، ونظموا العلاقات الزوجية ، فأصبح غير مباح عندهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد زواج ؛ ولذلك أخذت المرأة التى تكون أمّاً لأسرة تتبوأ مكانة طيبة في المجتمع ، ومُنحت المرأة بعض حقوق الإرث والتملك .

غير أنهم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئاً عادياً بلا قيود ، فقد ذكر القديس جروم (٣٤٠ - ٤٢٠م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الزوج الثالث والعشرين من أزواجها ، وكانت هى أيضاً الحادية والعشرين لبعولها . ثم بدأت بعد

ذلك تنهار عُرَا الأخلاق والآداب في المجتمع الروماني ، حتى وصلت إلى درجة أن كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنى شيئاً عادياً ، واندفع تيار من الدَّعَر والفجور والفواحش ، وراجت مهنة الداعرات ، وانجذبت إليها نساء البيوتات .

وكان نتيجة لانغماسهم في الشهوات البهيمية أن زالت دولة الرومان ، وتمزق جمعها كل ممزق ، وانتهت الإمبراطورية الرومانية في العصور الوسطى في حوالى سنة (٤٧٦م)^(١) .

ثالثاً: حالة المرأة عند الهنود :

كانت حالة المرأة عند الهنود حالة ذليلة مهينة . فقد جاء في شرائع «مانو» إله الهند : « أن الرباء والموت والجحيم والسم والأفاعى والنار خير من المرأة » .

كما جاء أيضاً في شرائع «مانو» : «تخضع المرأة في طفولتها لأبيها ، وفي شبابها لزوجها ، وفي تأيمها لأبنائها ، وفي ثكلها لأقرباء بعلمها ، ولا يجوز ترك أمرها لها . وتعد المرأة زانية إذا خلعت بالرجل مدة تكفى لانضاج بيضة ، وتحرم من حقوق الملكية والإرث» .

كما جاء في الشرائع نفسها : « أن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم زوجها كما لو كان إلهاً ، وألاً تأتي شيئاً من شأنه أن يؤلمه ، حتى إذا خلا من الفضائل ، وعلى المرأة أن تخاطب زوجها في خشوع قائلة : يا إلهى ! وتمشى خلفه بمسافة ، ولا تتكلم معه ، ولا تأكل معه ، بل تأكل مما تبقى منه » .

وجاء في أساطير «مانو» : «أن «مانو» عندما خلق النساء فرض عليهن حب الفراش ، والشهوات الدنسة ، والغضب ، والتجرد من الشرف ، وسوء السلوك ، فالنساء دنسات كالباطل نفسه ، وهذه قاعدة ثابتة » .

وكانت بعض الديانات الهندوكية - إلى عهد قريب - تحكم على المرأة بأن تحرق نفسها

(١) انظر : مبادئ القانون الروماني للدكتور محمد عبد المنعم بدر ، والدكتور عبد المنعم البدر .
وانظر : الحجاب ، لأبى الأعلى المودودى ، والموسوعة الثقافية للدكتور حسين سعيد .

في النيران التي تُحرق بها جثة زوجها الميت ، فإذا رضيت المرأة أن تعيش بعد زوجها فهي قد تخففت من الموت المادى إلى نوع من أنواع الموت المعنوى ، فعليها أن تحلق رأسها ، أو تجدد أنفها ، أو تصمم أذنها ، أو تشوه وجهها ، لكى تضمن ألا ينظر الرجال إليها بعد زوجها . وقد منعتهن أخيراً الحكومات المسلمة من ذلك ^(١) .

رابعاً : حالة المرأة عند الصينيين :

كانت المرأة عند الصينيين تحتل مكانة مهينة ذليلة أيضاً . وجاء في رسالة قديمة كتبتها إحدى سيدات الطبقة العليا بالصين تقول :

« نشغل - نحن النساء - آخر مكان في الجنس البشرى ، ويجب أن يكون من نصيبنا أحقر الأعمال » .

ومن أغانيهم القديمة المشهورة :

« ألا ما أتعس حظ المرأة ! ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها ، إن الذكور يقفون متكئين على الأبواب كأنهم آلهة سقطوا من السماء ، أما البنت فإن أحداً لا يُسرُّ بمولدها ، وإذا كبرت اختبأت في حجرتها تخشى أن تنظر في وجه إنسان ، ولا يبكيها أحد إذا اختفت من منزلها » ^(٢) .

والمثل الصينى يقول : « أنصت لزوجتك ولا تصدقها » .

ومن الأمثال الشائعة في بعض الدول الأخرى عن المرأة مثل روسى يقول : « لاتجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة »

ومثل إيطالى يقول :

« المهماز للفرس والجواد والفرس الجموح ، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة » .

ومثل أسباني يقول :

« احذر المرأة الفاسدة ولا تتركن إلى المرأة الفاضلة » .

(١) انظر : حضارة الهند ، لول ديورانت ، ترجمة د . زكى نجيب محمود . وانظر : الحجاب ، لأبى الأعلى المودودى . وحضارة العالم ، ط مؤسسة فرانكلين ، ترجمة وزارة المعارف المصرية .

(٢) انظر : حضارة الصين ، لول ديورانت ، ترجمة د . محمد بدران .